جامعة بيرزيت

BIRZEIT UNIVERSITY

الحضارة الأوروبيّة الحديثة والمعاصرة

CULS331

تلخيص: ليندا حمدان

2025/2024

%90

STUDENTS-HUB.com

يتضمّن هذا الملف تلخيص المحور الأوّل

(أوروبا في نهضتها وتنويرها من منظور نقدي)

وأجزاءً من المحور الثالث

(الشّرايين المفتوحة لأمريكا اللاتينيّة ولاهوت التّحرير)

STUDENTS-HUB.com

المحور الأول: أوروبا في نهضتها وتنويرها من منظور نقدي

الحضارة: الإنجازات المادية والمعنوية لشعب معين، ومرحلة من المراحل التاريخية التي تشمل العمران والاقتصاد والشكل السياسي والاجتماعي والأخلاقي والفني...إلخ.

نشأت أغلب الحضارات في العالم القديم في نفس النّطاق الجغرافيّ من العالم (فرعونيّة، الرّافدين "كنعانية/ آرامية/ فينيقيّة"، سومريّة، بابليّة، فارسيّة، هنديّة، صينيّة...) إثر عوامل جغرافية مختلفة. وبشكلٍ عام، **فإنّ التاريخ البشري كله قُسّم إلى:**

1- ما قبل التاريخ: وجود البشر قبل المراحل التاريخية وبدء الكتابة والتأريخ (الكتابة لا تشمل الرسم والنقش).

ورغم عدم وجود كتابات، كان بإمكان العلماء معرفة إذا ما كان شعبٌ معين له دين أو إيمان، وذلك من خلال سلوك البشر في دفن الأموات؛ لأنه غالبًا ما يؤشر ذلك إلى معتقد ديني والإيمان بمفهوم الموت.

2- المراحل التاريخية: 3400/3200 ق.م – الآن، **وتشمل:**

أ) العصور القديمة: من 3400 ق.م حتى القرن الخامس (سقوط روما) ودينها وثني.

ب) العصور الوسطى: من سقوط روما حتى سقوط القسطنطينيّة (القرن الـ15م) دينها مسيحي.

جـ) العصور الحديثة: من سقوط القسطنطينيّة حتى الآن.

- **أمثلة على حضارات في العصور:** القديمة ⇐ فرعونيّة/ بابلية.

  الوسطى ⇐ عربية إسلامية.

  الحديثة ⇐ أوروبية.

كلمة الحضارة آتيةٌ من الحضر، فالناس كانت متفرقة، تجمعوا وشكلوا شعوبًا متجمعة في المدن، وما يؤسّس الحضارة هو **الاستقرار** القائم على الزراعة الموسمية (لم يكن الصيد يؤسس الحضارة لأنه يعتمد على الحركة)، الذ يحصل البشر منه على الحماية، ما يؤدّي إلى تطوّرٍ وتحضّر.

اختيار سقوط المدينتين (روما والقسطنطينيّة) كنهاية وبداية عصور لم يكن بسبب سقوطهن، إنّما أن نقاط تحول العصور كانت اختيار بسبب تغيرات عصفت في العالم كله وأثرت عليه، وقامت بتغيير سمات المجتمعات بشكل كلي.

العوامل المؤثرة في الانتقال من عصرٍ إلى عصر (عام):

1- العامل الاقتصاديّ (وحدة تحليلٍ رئيسية):

أ) العصور القديمة: نمط الانتاج الرئيسي كان **العبودية** وكانت السلطة تقاس باقتنائهم، وكان هناك طبقتين: الملّاك الأحرار، والعبيد. ولم تنتهِ العبودية بعد انتهاء العصور القديمة، هم فقط لم يعودوا مصدر الانتاج الرئيسي.

ب) العصور الوسطى: نمط الانتاج الرئيسي انتقل تدريجيًّا إلى **ملكية الأرض (الإقطاع)**، وبالذات في أوروبا. وكان هناك طبقتين رئيسيّتين: ملّاك الأرض (الإقطاعيّين/ النّبلاء والأشراف)، تُوزّع عليهم الأراضي الصّالحة للزّراعة، وأقنان الأرض، يعملون على الأرض التي يملكها الإقطاعي دون أجر.

STUDENTS-HUB.com

جـ) العصور الحديثة: نمط الانتاج الرئيسي انتقل إلى **الرّأسمال**، وهذا مر بطورين: مع بدايات القرن الـ16 كان رأسمال تجاري، وبعد النّصف من ذلك أصبح صناعياً. وفيها طبقتين: طبقة ملّاك المصانع وكبار التّجار، والطبقة العاملة.

2- البنية الاجتماعية: تتغيّر البنية الاجتماعيّة باختلاف العصور:

أ) الاقتصاد: تغيّرت البنية الاجتماعيّة إثر تغيّر النّمط الاقتصاديّ، كم تبيّن في العامل الأوّل.

ب) الدّين: تغيّرت البنية الاجتماعيّة إثر تغيّر الدّين، **فالعصور القديمة** دينها **وثنيٌّ**، و**الوسطى** دينها **مسيحيّ**، وفي **الحديثة** حلّت **العلمانيّة** مكان الدّين،

جـ) السّياسة: تغيّرت البنية الاجتماعيّة إثر تغيّر نظام الحكم، فمعظم الكيانات السّياسيّة في **العصور القديمة** كانت **إمبراطوريّات (الإمبراطور عُدّ نصف إله)**، وفي **الوسطى** كانت **ممالك (كان للملك صلاحيّات مطلقة)**، وفي **الحديثة** أصبحت **دولاً قوميّة (انحسر دور الحاكم وصلاحيّاته)**.

د) القيم: تغيّرت البنية الاجتماعيّة تبعًا لتغيّر الصّعيد القيمي، فكانت قيمة **الإقطاع جماعيّة** لأنّ المجتمع زراعيّ، وكانت غاية وجود الإنسان هو الخلاص الأخروي. أما **الرأسمال** فقيمته **فرديّة** بسبب التّنافس في الصّناعة والتّجارة، وغاية وجود الإنسان هو السّعادة الدّنيويّة.

هذه السّمات تستغرق فترات وأحداث تاريخية طويلة حتى ترسخ، ولا تظهر أو تحدث أفولٌ لها فجأة.

انحلال العصر الوسيط

الأزمة الإقطاعيّة والتّقدم نحو حلّها لدى الأوروبيّين

كان الملوك يملكون الأراضي، ويعطون طبقة من الناس أراضٍ زراعية. وبسبب إدخال الملك أشرافًا وإخراج آخرين، وقانون الإرث الذي يُورّث الأرض للابن الأكبر، زاد ضغط الأمراء على الملوك لإقطاعهم أراضي في القرن الـ10. فاجتمع الملوك عند البابا في الفاتيكان لحلّ المشكلة، فالإقطاعيين لا يمكنهم أن يصبحوا أقنانًا، فصار معظمهم لصوصًا وقطاع طرق، مثيرين الفوضى. فكان الحلّ بالبحث عن أراضٍ جديدة عبر الحملات الصليبية، وكان هدفهم بلاد الشام.

بدأت الحملات الصليبية بأناس عاديين كالأقنان، وليس جيوشًا نظامية. ولإقناعهم بالقتال، كان للثقافة الدينية الأثر الأكبر، فُرِفع الصليب على الأعلام، بهدف تحرير قبر المسيح من الكفار المسلمين، واقتنع الناس. وهذا الشعار غطّى الهدف الحقيقي: استعمار الأرض وتوزيعها على الأمراء.

تأثير الدّين والكنيسة على النّاس – السّياسة والمعرفة

1- المعرفة: كان النظام الإقطاعي يستند إلى المعرفة الدينية المحتكرة من رجال الدين، والقضية المعرفية كانت أن الشخص **يؤمن ليعرف**، وكل المعارف تُقاس ضمن القناعات الدينية والطريقة التي يراها رجال الدين مناسبة، وبالتالي أينما لا يوجد نص ديني لا يوجد معرفة.

- **مثال:** حافظت الكنيسة على فكرة اليونان بثبات ومركزيّة الأرض للكون نتيجة تأويلٍ للكتاب المقدس؛ لأن تجسد الإله (المسيح) على الأرض يحتاج لأن يكون للأرض مكان خاص وثبات، معطيًا مكانتها.

اعتمدت الكنيسة على التفسير القدري، فالثقافة السائدة قدريّة والتاريخ ثابت، فيعيش المرء قدره دون تغييره، وهذا يخدم النظام القائم. وقالوا إن هدف المؤمن الخلاص السماوي لا الأرضي. وفسّرت الكنيسة الكتاب المقدس المُترجم للاتينية كما تريد، والناس لا يعرفون القراءة، فاستُغِلّوا لتأبيد الظلم، في مقابل استفادة طبقة من الحكم.

STUDENTS-HUB.com

2- السّياسة: تمتد سلطة الكنيسة إلى السياسة، فكل حكم يحتاج مصدرًا شرعيًا يمتثل الناس لسلطته، وفي العصور الوسطى كان الدين هو المصدر، بما سُمّي **بالحق الإلهي للملوك**، أي أن الله اصطفى الملك ليحكم الناس، وتنتقل الشرعية بالوراثة. هذه العلاقة تجمع بين الكنيسة والسياسة، أعطت الكنيسة الشرعية للملوك، وبالمقابل منحتها السلطة امتيازات هائلة، وامتلكت الكنائس نحو ثلث الأراضي القابلة للزراعة، ما أثّر على الشكل السياسي لاحقًا.

العوامل المؤثّرة في الانتقال من العصر الوسيط إلى العصر الحديث (خاصّ)/ (ضمن ما يعرف بعصر النهضة أو قبلها)

1- اللغة: كان الكتاب المقدس مكتوبٌ باللاتينية، وحتى تضمن الكنيسة احتكارها للمعرفة تمنع ترجمة الكتاب المقدس. وحدثٌ بارزٌ هنا هو أن اللغة القومية أصبح لها أهمية **باختراع الطّابعة**. وصاحب ذلك تحويل الكتاب المقدس إلى اللغات القومية بعد أن أدرك النّاس أهمّيتها، فأصبح كل واحد يدرس الكتاب المقدس بلغته بعد حركة الترجمة.

2- التّوسّع في التّجارة: انتقل الناس إلى التجارة في نهاية العصور الوسطى، وكانت القوافل تمرّ من مملكة إلى أخرى، لكنهم واجهوا مشكلة، وهي طلب الإقطاعي بدل مرور والدفع بحجّة التأمين من قطاع الطرق. والتوسع التجاري دفع التجار للتفكير بحل، إذ لا ربح مع الدفع المتكرر، فكان البديل هو **التعرفة الجمركية**، وبدأت البرجوازية تدفع نحو وضع حدود بين الدول.

3- نشوء الدّولة القوميّة: برزت الدولة القومية الحديثة في نهايات العصور الوسطى وبدايات الحديثة، وتميّزت باشتراك الشعب في اللغة والتاريخ والوجدود ضمن إقليم، ورغبتهم في العيش المشترك ضمن كيانية سياسية.

قبل ذلك، لم تكن هذه السمات موجودة مع الكيانية السياسية، كما في روما وبني أمية. فدولة القرون الوسطى والقديمة ليست كالحديثة، التي بدأت نهاية القرن 15، واعترف بها عام 1648 (معاهدة وستفاليا). وكل دول اليوم قومية حديثة، والدولة القومية هي التي أرست فكرة المواطنة.

4- توزيع السّكان (اكتشاف العالم الجديد): عام 1492م (بداية العصور الحديثة بسقوط آخر معاقل العرب في الأندلس ووصول كولومبوس للعالم الجديد)، أصبح وجه العالم يتغيّر، فأوروبا تُسقط العالم القديم والوسيط وتدشّن عالمًا جديدًا، ووصول كولومبوس للعالم الجديد مثّل موردًا جديدًا من الثّروات التي لم يسبق لأوروبا استغلالها. وأصبح هنالك حاجة للسّفن وتوسيع الموانئ وانتقال السكان، **وتوزيع السكان ديموجرافيًّا في أوروبا تم على مراحل:**

أولاً: الطّاعون الأسود (القرن الـ13): انتشر الطّاعون وأدى لموت العديد في القارة، وهذا كان فرصة لبدء حياةً جديدة في مكانٍ جديد.

ثانيًا: الإصلاح الدّيني: اختلفت الكنائس بعد ترجمة الكتاب المقدس، وخرجت فكرة الإصلاحية وانشقاق الكنيسة البروتستانتية عن الكاثوليكية ومواجهة بعضهم، ومن اعتنق العقيدة البروتستانتية انتقل من وسط وجنوب أوروبا إلى شمالها وغربها؛ بسبب الحروب ضد السكان للتنازع على السلطة المغلّف بالدين ليعطيه الشّرعية.

ثالثًا: الهجرة: هاجر النّاس إلى العالم الجديد واستوطنوا فيها، وأخرين أقاموا في أوروبا ولكن أعيد توزيعهم جغرافيًا؛ لأن الموانئ شهدت حركة نشطة، ومنها احتلّوا السّاحل الأفريقي وأخذوا الناس عبيد.

"لم تكن الأمريكيّتين فارغتين كما يدعي البعض، إنما يوجد تقديرٌ بوجود حوالي 160 مليون من السكان موزعين في القارتين، معزولين عن العالم لعشرات آلاف السّنين، والذين أُبيدوا بالقتل أو الوباء".

STUDENTS-HUB.com

5- التّفكير التّطبيقيّ وبزوغ العلم (العلمانيّة): انفتح الأوروبيون على موارد الذهب والفضة من الأمريكيتين، ما منحهم تفوقًا اقتصاديًا. لكن كانت الموارد خامًا بلا فائدة، فدفعهم ذلك للتفكير التطبيقي والاختراع. واختلف منظور العلم عن وقت الكنيسة، وظهرت العلمانية، أي **استقلال العقل والعلم عن الدين**، فالعلم والدين ليسا شيئًا واحدًا:

- **الإيمان الديني:** تسليمي، قائم على حقيقة واحدة ثابتة مطلقة لا مجال للاختبار، ومصدره إخباري.

- **العلم:** قابل للتصديق والتكذيب، وبزوايا مختلفة، ومصدره العالم الطبيعي (الأشياء)، واكتشافاته قد تنفي بعضها بعضًا.

6- الثّقافة: تغيّرت الفنون من التركيز على القضايا الدينية ورسائل الندم إلى الإنسان المتفائل الباحث عن السعادة، لان العصر الحديث منحه حرية تقرير مصيره والسعادة. وانعكس ذلك في الرسم والألوان. وكانت الموسيقى جنائزية، ثم دخلت عليها موسيقى البهجة. هذا التحوّل ضد سيطرة الكنيسة جعل الناس يدركون أن مصيرهم ليس مربوطًا بالخلاص الأخروي، بل يمكن تغييره.

7- المجال السّياسيّ والمعرفيّ: يتطرق إلى عدة مجالات:

أ) الانتقال إلى فلسفة سياسية حديثة.

1. ميكافيلي

الانتقال إلى الفلسفة الحديثة يعني ارتباطها بنشأة الدولة الحديثة، وهي سمة العصور الحديثة والتفكير السياسي فيها. وارتبط هذا التفكير بالدولة القومية الحديثة التي نشأت على أنقاض الدولة حدث إرساء قواعدٍ لعلم سياسة جديد في الفلسفة السياسية يراعي التطورات التي شهدتها التجربة السياسية من نهايات العصور الوسطى مرورًا بعصر النهضة، ومثل هذا الفكر ميكافيلي.

نظر ميكافيلي، أبو الواقعية السياسية، مع نهاية الوسطى وبداية الحديثة، إلى الدولة والسلطة بمنطلق مختلف، فكان يحلل الواقع كما هو، لا كما يجب أن يكون. هذا النهج الواقعي وُجد سابقًا لدى أرسطو، مقدم الجمهورية، وأفلاطون، مقدم السياسية، لكن أفلاطون في الجمهورية كان مثالي النزعة، يبحث عن النظام الأمثل. ركز ميكافيلي على وقائع تاريخية وتأكد من معلوماتها بأوقات وأماكن مختلفة للوصول إلى استنتاج مناسب

وربط ميكافيلي السياسة بالمنفعة والمصلحة، وحدد أن السلطة السياسية تسعى لتحقيق غايات لضمان استقرار الدولة ونظام الحكم. فميز بين السياسة من جهة والدين والأخلاق من جهة أخرى. ويُقال إنه فصل الدين عن الأخلاق، لكن الصحيح أنه ميز بين الحقول، واعتبر الدين والأخلاق أدوات تخدم مصلحة رجل السياسة، لا توجه أفعاله أو التصرف سياسيًا وفقهما.

تطورت الفلسفة حتى وصلت للعرب، فظهرت التجربة العربية الإسلامية، وكان رأس الواقعية فيها ابن خلدون، الذي حلل المجتمعات وانهيارها والعصبية وفق الواقع، وبدأت عنده فكرة علم الاجتماع. واعتمدت أوروبا على التجربة العربية، ولم يتمكنوا من قراءة اليونانيين إلا عبر الترجمات العربية.

لاحقًا، مع تبلور الدولة القومية الحديثة، ظهرت تحولات في بنية السلطة، وبينما اعتمدت سلطة ميكافيلي على القوة. ظهرت فكرة جديدة في الفلسفة السياسية وهي "شرعية السلطة"، وتعني امتثال المحكومين لسلطتهم الحاكمة، فليسوا طرفًا في صيغة الحكم الناشئ، فكل سلطة تبحث عن مصدر شرعية. أما في زمن ميكافيلي، فكانت الشرعية قائمة على القوة فقط. واستخدم الاستقراء بدراسة تاريخ أوروبا ليستنتج أفكارًا سياسية، واستخلص تجارب الممالك السابقة في أوروبا حسب الواقع، واعتبر الدين أداة للسيطرة، وأكد أن **الغاية تبرر الوسيلة** للحفاظ على الحكم.

STUDENTS-HUB.com

2. هوبز – النقلة الأولى للعقد الاجتماعي

تكلم الفيلسوف الإنجليزي هوبز عن ظهور مصدر شرعية جديد في نشأة الدول والمجتمع السياسي وهو "العقد الاجتماعي"، الذي يعتمد على علاقة تعاقدية بين الحكام والمحكومين. هذه الفكرة نضجت لاحقًا بحيث أصبح للعقد السياسي طرفان يتفقان على الحقوق والواجبات. صيغته تفترض علاقةً بالطبيعة البشرية المدفوعة بالغرائز للبشر المعظّمة للبقاء والنجاة.

شهد هوبز في القرن السادس عشر الانقلاب والثورة على النظام الملكي في إنجلترا، وفي الفترة بين الملكية وإقامة جمهورية كروميل لأول مرة، ثم العودة للملكية، شهدت إنجلترا فوضى وغيابًا للقانون والعنف. دفعه هذا الوضع للتفكير في فكرة جديدة حول استقرار نظام الحكم، ولذلك وضع أساسات العقد الاجتماعي كحل لهذه الأزمة، حيث اعتبر أنه يجب تأسيس علاقة جديدة بين الحاكم والمحكوم.

تصور هوبز المجتمعات قبل وجود الدولة كحالة طبيعية يعيش فيها الناس بتساوي وحقوق مطلقة، حيث لا توجد سلطة تفرض نفسها على الأفراد. في هذه الحالة، يمكن لكل شخص أن يفعل ما يريد، مما يؤدي إلى أن كل فرد سيحاول تعزيز ما يراه حقاً له. وبما أن الجميع لديهم الحق المطلق في تنفيذ ما يرونه مناسباً، تبدأ الصراعات بين الأفراد نتيجة لاختلاف تصور كل شخص لحقوقه، مما يؤدي إلى تصادمات مستمرة بين الأفراد كلهم. هكذا تصبح حالة الحرب الشاملة "حرب الكل ضد الكل" واقعاً حقيقياً، التي تدفعها الحالة الطبيعية، حيث يغيب وينعدم الأمن ويتفشى العنف، ويؤدي ذلك إلى تهديد بقاء الأفراد. في هذه الحالة الطبيعية، على الرغم من أن كل فرد يتمتع بحريات وحقوق مطلقة، فإن هذه الحقوق المطلقة تساهم في تفكك المجتمع وتهدد استقرار الأفراد، لأن الجميع يحاول الدفاع عن مصالحه الخاصة.

الإنسان بطبيعته يميل للحرية وتوسيع نطاقها، ولكن الحرية المطلقة التي يتحدث عنها هوبز هي حرية بلا ضوابط، وهذه تؤدي إلى تهديد الحياة. وهكذا، يصبح الأفراد أمام خيار مفاضلة بين حقوقهم وحرياتهم المطلقة وبين البقاء والأمن. لذلك، يتفق الأفراد على إنشاء سلطة حاكمة عبر التعاقد ويكونون أساس شرعية الحكم والقوة، حيث تكون الدولة نتيجة لهذا التعاقد الذي يقوم على التنازل عن الحقوق والحريات لصالح سلطة سياسية أو ملك، تكون مهمتها الأساسية الحفاظ على الأمن والبقاء. هوبز يرى أن الأفراد يتنازلون عن حرياتهم السياسية لصالح إنشاء هذه السلطة التي تسيطر على المجال السياسي وتضمن استقرار المجتمع.، وهنا السلطة السياسية ليست طرفا بالعقد، أي ليس من شأن الأفراد تغيير السلطة السياسية طالما أن مهمة الملك الحفاظ على الأمن والبقاء، أو التدخل في شؤون الحكم وتغييره.

3. لوك – النقلة الثانية للعقد الاجتماعي

هذا الفيلسوف أيضاً وضع صيغة للعقد، لكنها لم تكن استجابة لفوضى أو أزمة كما في حالة إنجلترا، بل استجابة لتحول اقتصادي من الإقطاع إلى الرأسمالية. وأساس الرأسمالية هو الملكية الفردية، لذا كانت حاضرة تماماً في العقد الذي اقترحه لوك. فهو أراد نقلة جديدة في النظام السياسي بحماية الملكية الفردية، باعتبارها جوهر النظام الاقتصادي الجديد الذي بدأ يتشكل، وهو النظام الرأسمالي.

فإذن يبدأ لوك التفكير في النظام السياسي من نفس منطلقات هوبز، أي تخيل المجتمعات قبل نشوء الدولة، حيث كانت تعيش بسلام وتساوٍ في الحقوق والحريات، لكن بخلاف هوبز، لا يتحدث عن حقوق مطلقة، بل عن حقوق عقلانية تمنع الناس من الاعتداء على بعضهم (حرب الكل ضد الكل)، مما يجعل الصورة التي يقدمها مثالية في الحالة الطبيعية. لكن ما يدفع الأفراد للتخلي عن هذه الحالة هو اختلال المساواة. لم يعودوا متساوين بسبب نشوء فكرة الملكية الفردية، والتي يربطها لوك بالعمل، حيث يعتبر أن العمل هو أساس نشأة الملكية.

STUDENTS-HUB.com

فكرة العمل عند لوك تقوم على أن قدرات الناس واستعداداتهم للعمل مختلفة، فمن يعمل أكثر، من الطبيعي أن يملك أكثر، ومن غير المنطقي أن يأتي آخر ويشاركه فيها بالتساوي، لذا يبدأ هذا الشخص بوضع حدود لأرضه ويمتلكها. فتنشأ الملكية الفردية من العمل، ومعها تختل حالة المساواة. لم نعد أمام مجتمع متساوٍ، ومع وجود الملكيات تبدأ النزاعات، لأن الأفراد أصبح لديهم ما يُتنازع عليه. في حالة هوبز، كان سبب النزاع هو ندرة الموارد، أما عند لوك، فالنزاع ينشأ بسبب وجود الملكيات نفسها.

وفي ظل غياب سلطة، لا توجد جهة تفصل في النزاعات أو تطبق القوانين. من هنا تنشأ الحاجة لعقد اجتماعي جديد، يتنازل فيه الأفراد عن جزء من حقوقهم لصالح سلطة حاكمة يتعاقدون معها. مهمّة هذه السلطة أن تحمي الملكيات وتسن القوانين وتنظم شؤون الناس وفق إراداتهم. هذه السلطة لا تحكم من فوق الأفراد، بل تمثل إرادتهم السياسية، وتحكم من أجل مصلحتهم، على أساس قوانين تعكس ما بقي لهم من حقوقهم، فيصبح لدينا سلطة سياسية تنفذ القوانين وتفصل في النزاعات وتضمن حماية الملكية الفردية.

النظام الغربي يقوم على هذه ثلاثيةٍ محورها الحرية، التي أصبحت روح العصر بعد تفكك الإقطاع. لم يعد الفرد خاضعًا لوصاية الكنيسة، بل امتلك استقلاله وحقه في تقرير مصيره، ولم يعد يسعى للخلاص الأخروي، بل لخلاص دنيوي نابع من حريته ووكالته على نفسه.

هذه الحرية موجودة بمستويات مختلفة:

أ) ليبرالية: حرية الأفراد ⇦ حريات لا تمس بالآخرين كالطعام والمسكن والرأي (؟).

ب) ديمقراطية: حرية على المستوى السياسي ⇦ الانتخاب، تشكيل الأحزاب، الاحتجاج، الرأي (؟).

جـ) رأسمالية: حرية اقتصادية ⇦ الملكية الفردية وحق التملك والتصرف، حرية اليد العاملة والانتقال.

بالنسبة لليبرالية، تحليل النصوص لا يقتصر على ما هو **مُصرّح به** فقط، بل يشمل أيضًا ما تم **السكوت عنه** عمدًا. المفكر السياسي لا يغفل عن القضايا الجوهرية، بل قد يتعمد تجاهلها لإيصال رسائل ضمنية.

هوبز مثلًا، حين تحدث عن تنازل الأفراد عن حرياتهم المطلقة لصالح الحاكم، ركّز على الحريات العامة في المجال السياسي وتجاهل الحديث عن الحريات الفردية. هذا السكوت لم يكن عفويًا، بل مقصودًا، مما يفتح بابًا لفهم أعمق لدوره كمؤسس للفكر الليبرالي.

جون لوك جاء ليكمل ما بدأه هوبز، لكنه قدّم رؤية مختلفة تجمع بين الجانب السياسي والجانب الاقتصادي، ووضع الملكية الفردية في قلب العقد الاجتماعي. لوك يرى أن الإنسان في حالة الطبيعة لم يكن بحاجة إلى التملك، لأن الموارد كانت كافية للجميع، ولم يكن هناك ندرة تدفع الناس للصراع عليها. لكن مع الوقت، وبسبب ندرة الموارد الطبيعية، اضطر الإنسان إلى البحث عن بدائل، وكان البديل الأول هو الزراعة. ومع الزراعة، ظهر العمل، الذي يعتبره لوك أساس الملكية: الإنسان يملك الشيء لأنه عمل فيه وبذل فيه جهده. ومع ظهور التفاوت في الملكيات بين الأفراد، بدأ يظهر الخوف من النزاعات، خاصةً أن حالة الطبيعة لا تحتوي على قوانين مكتوبة، ولا على سلطة تشريعية، قضائية، أو تنفيذية. فمع غياب هذه السلطات، يصبح من الصعب حل النزاعات حول الملكيات.

لذلك، يرى لوك أن الناس بحاجة إلى عقد اجتماعي، يتنازل فيه الأفراد عن جزء من حقوقهم السياسية لصالح سلطة سياسية كما تبين سابقًا، تكون مهمتها: حماية الملكية الفردية، والحريات الفردية، وتمثيل إرادتهم في التشريع. وبهذا، لا يكون التنازل كما في نموذج هوبز شاملاً لكل الحقوق، بل هو تنازل محدود ومدروس، هدفه إنشاء سلطة تحمي حقوق الأفراد، بدل أن يسلبها منهم. ومن هنا، يتضح كيف أن لوك مهّد الطريق أمام الفكر الليبرالي، الذي يرى أن الدولة موجودة لحماية حقوق الأفراد لا للهيمنة عليهم.

STUDENTS-HUB.com

وهذه هي نشأة الدولة الغربية بمعناها الحديث الذي وضعه لوك. ومظاهر الحادثة السياسية التي قطعت مع ما كان في دولة العصور الوسطى حيث يملك الملك ويحكم. هنا أصبحت الأمور واضحة بهذه الصيغة.

4. جان جاك روسو

وضع جان جاك روسو صيغة أخرى للعقد الاجتماعي التي قدمها كنوع من الدفع للثورة السياسية. هوبز يفكر بطريقة محافظة ضد الثورة. لوك مع تكريس النظام الرئاسمالي، وروسو مع **انبثاق السلطة من ثورة الشعب**، وبالتالي تحدث عن تنازل الأفراد ليس للسلطة الحاكمة وإنما لبعضهم للحالة السياسية، ولأنفسهم الاجتماعية، بما يسمى بالإرادة العامة

ب) الانتقال إلى فلسفة معرفية حديثة

المظهر الثاني من مظاهر الحداثة هو الحداثة المعرفية، والتي بدأت بالتشكل مع الانتقال من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة، وتحديدًا عندما بدأ الناس يتحدّون البديهيات السائدة ويعيدون التفكير في تصوراتهم للعالم ولمكانتهم فيه. هذا التحول المعرفي لم يكن فجائيًا، بل سبقته محطات مهمة، أبرزها القبول التدريجي للفلسفة داخل المؤسسة الدينية. ففي القرن الثالث عشر، قام توماس الأكويني، أحد قديسي الكنيسة، بمحاولة جريئة لدمج الفلسفة مع اللاهوت المسيحي، فأسقط مفاهيم الفلسفة على العقيدة واللاهوت المسيحي، وفسّر المسائل الإيمانية بمنطق فلسفي. هذه الخطوة مهدت لقبول لاحق للفكر العقلي داخل الكنيسة، لكن بالرغم من ذلك، عندما حاول بعض المفكرين العرب السير في نفس الاتجاه، اصطدموا برفض مجتمعي واسع. ومع الإصلاح الديني في أوروبا، بدأت العلاقة المعرفية بين الناس والدين تتغيّر، وتفككت بعض المسلّمات التي كانت تعتبر "حقائق مطلقة". ومع هذا التغير، بدأ العلم يتقدم بثقة إلى الأمام كحاجة ضرورية لفهم العالم.

واحدة من أبرز المحطات التي تجسّد هذه الحداثة المعرفية والنهضة كانت عام 1492، حين أبحر كريستوفر كولومبوس لاكتشاف طريق جديد عبر البحر. ولكي يتمكن من ذلك، احتاج إلى فهم علمي دقيق لمسارات البحر، والنجوم، والاستدلال الكوني. وهكذا، تحوّل العلم من أداة لفهم الطبيعة إلى وسيلة للسيطرة عليها، وبدأ يشكّل أحد أعمدة الحداثة الأساسية، في مقابل التفسيرات الدينية التقليدية.

هذا كان فاتحة انهيار نموذج بطليموس بأن الأرض مركز الكون وثابتة، بينما هي تدور حول الشمس وهي كوكب عادي. بدأ العلم يتراكم لحاجة الناس لتحويل المواد الخام إلى مواد صناعة، وركوب السفن، والبحث عن طرق جديدة، وإنشاء الموانئ والمدن الصناعية.

حركات التعلم والمعرفة المذكورة مسبقًا من تعلم من منجزات الحضارة العربية الإسلامية، وحركة ترجمة الكتاب المقدس للغات القومية، والإصلاح الديني، وميل الكنيسة لتبني تفسيرات للكتاب المقدس احتاجت إلى تنظيم، ولكل علم موضوع ومنهج. تراكم المعرفة لا يُنظم ولا يُستفاد منه دون منهج، أي خطوات لمعالجة موضوع معين وصولًا إلى النتيجة، ومن هنا ظهرت مسألة المنهج، وبدأ الحوار بين منهجين: الاستقراء التجريبي مثله بيكن، والاستنباط العقلي مثله ديكارت.

1. بيكن وديكارت

الاستقراء التجريبي (بيكن) والاستنباط العقلي والتأملي (ديكارت)

يفكر الإنسان بطريقتين: الاستقراء، يتعلق بالذهن الذي يعقل أي يربط، والاستنباط، يتعلق بالذهن الذي يفكر أي يحلل.

الاستقراء التجريبي: يبدأ من الجزئيات للوصول إلى الكليات، وبيكن أراد فهم العالم عبر التجربة، معتبرًا أن التجريب على مفردات جزئية لا يكفي للتعميم الكامل، لأن ظهور استثناء واحد ينفي القاعدة. لذا رأى أن الاستقراء التجريبي ناقص، ويجب تكرار التجربة وتوسيع نطاقها وتغيير ظروفها لضبط النتائج، حتى تكون قابلة للتكرار في كل زمان ومكان.

STUDENTS-HUB.com

أشار بيكن إلى وجود أربعة أنواع من الأوهام أو "الأصنام" التي تعيق العقل عن الوصول إلى المعرفة اليقينية، وهي:

أ) أوهام القبيلة: ناتجة عن الطبيعة البشرية المشتركة باعتبار أن الجنس البشري قبيلة واحدة ، مثل الميل إلى الثقة بالحواس رغم قصورها لإدراك العالم الخارجي. فالحواس تدرك وجود الأشياء، لكنها لا تعطي قياسات دقيقة كالحجم أو البعد، لذلك لا يمكن الاعتماد عليها وحدها في معرفة طبيعة الأشياء، ويجب الاستعانة بأدوات ووسائل مساعدة.

ب) أوهام الكهف: ترتبط بالفرد نفسه، حيث يكون لكل شخص تفضيلاته وأحكامه المسبقة على الأشياء الناتجة عن بيئته أو تجاربه الشخصية. هذه الأحكام قد تكون غير علمية، مثل تفضيل آلات من دولة معينة فقط بناء على تجربة فردية، وهو ما لا يصح تعميمه.

جـ) أوهام السوق: تتعلق باللغة والتواصل بين البشر. فاللغة قد تُستخدم بطريقة تحجب الحقيقة، مثل استعمال كلمة "معبر" بدلًا من "حاجز عسكري" في وصف الواقع عند موقع ما، مما يعطي صورة غير دقيقة عن الحقيقة.

د) أوهام المسرح: تشير إلى تأثير الأيديولوجيات والمذاهب الفكرية على فهمنا للواقع ورؤيتنا للأشياء. فكل شخص يرى العالم من خلال "عدسة" فكره ومعتقده، مما يؤدي إلى تشويه فهم الواقع. مثلًا، من ينتمي لفكر ديني متطرف قد يرى الأماكن الإسلامية كأماكن يهودية وفق معتقده، وليس بناءً على الحقائق التاريخية.

يرى بيكن أن التخلص من الأوهام ضروري لتحقيق المعرفة الموضوعية، عبر تطوير أدوات منهجية والاعتماد على منهج الاستقراء التجريبي لفهم الظواهر وتحليل النتائج بالعقل. هذا المنهج أسهم في تقدم العلوم الطبيعية، التي شكّلت بدورها أساس العلوم التطبيقية التي ما كانت لتتطور لولاها.

الاستنباط العقلي: معروف في علم المنطق، وهو تعميم من الكل إلى الجزء، مثلًا: كل إنسان يموت، وسقراط إنسان، إذًا سقراط يموت. اعتمد ديكارت هذا المنهج العقلي، وهو شبيه بالقياس الفقهي: كل مسكر حرام، البيرة مسكر، إذًا البيرة حرام. فالفقه يقوم على استنباط الحكم من قاعدة عامة.

اعتمد ديكارت، بحكم كونه عالم رياضيات، على العقل كأساس للوصول إلى المعرفة، وبدأ منهجه بالشك المنهجي، أي الشك في كل ما هو بديهي أو مألوف للوصول إلى يقين عقلي حقيقي. الهدف من هذا الشك ليس إنكار الحقائق، بل البحث عن أساس قوي لها من خلال محاكمة عقلية دقيقة، مثل الطريقة المستخدمة في التفكير الرياضي. واستخدم الشك أيضاً كخطوة أولى للوصول إلى إيمان راسخ بوجود الله، من خلال تبديد الشكوك بالحجج العقلية، بإزالتها يقترب المرء من الإيمان المبني على الدليل العقلي. ديكارت بدوره أثبت وجود الله من خلال العقل وليس النصوص الدينية، ما دفع الكنيسة ذات السلطة في عصره لرفض طريقته، لأن الإيمان العقلي عنده لا يرتبط بالضرورة بالدين أو بنسخته التقليدية. فهناك من يؤمن بوجود خالق من منطلق فلسفي وعقلي دون الالتزام بدين محدد.

لا تقتصر أهمية ديكارت على إثبات وجود الله بالدليل العقلي، بل تكمن في منهج الشك، ودراسة أي موضوع يجب أن تنطلق من الشك. فشك ديكارت في كل شيء، حتى وجود ذاته، واعتبر أن أول نقطة يقين يمكن الانطلاق منها هي إثبات وجود الذات العارفة، ومن هنا جاء قوله: "أنا أشك، إذن أنا موجود"، أي أن الشك هو أساس التفكير ووجود الذات الواعية.

الإنسانية

ما قدمه الغرب سياسيًا ومعرفيًا هو من تراكمات الوعي الإنساني، ولا يمكن حصر العلم بجماعة دون أخرى، فهي ملك للإنسانية. كل مجتمع يضيف لما قبله، كما فعل المسلمون حين استوعبوا حضارات كالفُرس والبيزنطيين والهند، وأضافوا معارفهم على المعارف السابقة. ثم جاء الغربيون، وأخذوا منجزات العرب والرومان واليونان، وطوروا عليها. اليونان أنفسهم تأثروا بحضارات أقدم كالمصرية والهلال الخصيب. فالمعرفة الإنسانية تتراكم عبر احتكاك الشعوب، سواء بالحرب أو السلم، وكل أمة ساهمت بما لديها. لكن لا يمكن تجاهل الوجه الاستعماري للحضارة الغربية، المبني على الاستغلال المرتبط بالرأسمالية.

STUDENTS-HUB.com

كان الوجه الأول للحضارة الأوروبية هو الحديث عن الفلسفة السياسية والمعرفية وكيف قُدمت، والوجه الآخر يتعلق بعلى حساب من قُدمت الإنجازات، وهو أن تزامن النهضة الاستعمار وصعود رأس المال اللذان كانا نهبًا واستغلالاً. وهناك تساؤل حول ما إن كان "الغرب" مفهوم حقيقي أم مصطنع، فمفاهيم مثل الغرب والشرق وأوروبا والعرب تشكلت تاريخياً، وتداخل فيها الواقعي والأسطوري. هناك مقولات لتقسيم العالم إلى نطاقات حضارية وصراعات دائمة.

الإدعاء لدى الغرب بتصوره عن ذاته أصولٌ ثلاثة، يعتقد أنها تميزه عن غيره (غير الغرب)، وهي:

أولاً: الأصل والانتساب اليوناني والروماني ⇦ القانون، المعرفة العلمية والفلسفة، الملكية الخاصة، النزعة الإنسانية للفرد.

ثانيًا: الأصل المسيحي واليهودي – العصور الوسطى ⇦ الأخلاق، فكرة الآخرة، إصلاح الدين.

ثالثًا: عصرا النهضة والتنوير ⇦ العقلانية، الدولة الحديثة، الحريات.

أولًا: يعتقد الغرب أن أصوله الثلاثة تميزها عن غيرها، لذلك ربط نفسه بهذه الأصول. يدعي الغرب أن الأصل اليوناني قدم له مفاهيم لم تكن موجودة قبل ذلك، وقد استمرت. يعتقد الغرب أن كل ما أنجبت الأجيال في الماضي استمر ليشكل الهوية الغربية. إن الفلسفة اليونانية تعد جزءاً من مكونات الحضارة الغربية، فكل قراءات الغرب كانت حول اليونان. ومع ذلك، يتم تجاهل حضارات أقدم مثل السامية القديمة والمصرية، التي شكلت الأساس للإنجازات الحضارية الإنسانية ومنها اليوناني، فحتى يبني أسطورة اختلافه عن الآخر يميل لإعلاء جوانب على حساب جوانب أخرى، فيظهر ويطمس. يُعتَقَد أن الأصل اليوناني كان لحظة الانبثاق الأولى للوعي البشري. نفس الشيء يحدث مع الرومانيين، حيث يُدّعى أن القانون والملكية الخاصة والتشكلات الإمبراطورية جاؤوا من أصل يوناني وروماني، رغم أن هذه المبادئ كانت موجودة في حضارات أخرى قديمة. الأصل اليوناني والروماني هو حلقة من تراكم الحضارات البشرية، ولكن تم الإعماء على ما هو غير رومي وإخفاؤه وإغفاله بشكل متعمد. وأما عن الأسطورة، فهي ليست خيالاً بل إعادة إنتاج التاريخ مع عناصر غير تاريخية. فالمجتمع يسجل تاريخه عبر شخصيات وحوش وآلهة، ولكنه يتحدث عن نفسه. فينتج هذه الكائنات ليشكل أسطورة حول ذاته ويتعمد خلق وتطوير عناصر من أجل إعادة إنتاج هذا الأصل.

ثانيًا: التراث اليهودي والمسيحي له دور في التاريخ الأوروبي. منذ طيطس الإمبراطور الروماني سنة 70 ميلادي، بدأت نزعة عداء اليهود في أوروبا، وذلك قبل انتشار المسيحية في القرن الرابع ميلادي. رغم ذلك، في مرحلة معينة، تم استدعاء التراث اليهودي لأن الكتاب المقدس يتكون من العهدين القديم والجديد. كان العهد القديم يُنظر إليه كالعقيدة التوحيدية الأولى بالنسبة للأيديولوجيا الغربية.

الأديان جاءت على ثلاثة أنواع: دين توحيد (إله واحد)، دين تثنية (إلهين)، ودين تعدد (آلهة متعددة). هذه الأنواع من الروايات تنطبق على معظم الديانات، حيث تختلف الشخصيات ولكن البنية الأساسية هي نفسها. العقيدة التوحيدية تكون في الإيمان بالله والشيطان، والمثنوية كانت عند الفرس (نور ونار...)، والتعددية في آلهة متعددة، بينها إله مجرّد أعلى من الباقي. في النهاية الحقيقة هنا تكون نسبية وليست حقيقة مطلقة.

العودة للتراث اليهودي والمسيحي وظهور اللاسامية ليكون جزءاً من تراث القرون الوسطى تعني تأكيد أن هذا التراث هو السبّاق في التوحيد والمنظومة الأخلاقية، بالإضافة إلى المسعى الأخروي. من يؤمن بالدين التوحيدي يؤمن بما سبق الأوروبيين من حضارات. في بداية النهضة، تم تجاهل التراث المسيحي باعتباره ظلامياً، لكن مع تطورها، تم استدعاء المسيحية مجدداً بسبب الصراع مع سلطة الكنيسة. التي كانت تملك الأراضي الإقطاعية وتبادل الأدوار مع الحكم المطلق. ثم أضافوا منجزات عصر النهضة والتنوير التي قامت على العقلانية في جميع المجالات.

STUDENTS-HUB.com

ثالثًا: تميز عصر النهضة والتنوير في أوروبا بالعقلانية والمناهج العلمية التي جعلتها تتفوق على غيرها من الحضارات. وقدمت صيغة الدولة الحديثة، المواطنة، الحريات، وارتباط الاقتصاد بالسياسة. طوال الوقت، كانت أوروبا تعمل على تقديم نفسها كحضارة متفوقة، وفي نفس الوقت تنظر للآخرين بصورة معكوسة. إذا كان الغرب عقلانيًا، فكان الآخرون غير عقلانيين؛ وإذا كان الغرب يمتلك حرية، فالآخرون مستبدين. هذه المقارنة المستمرة بين الذات والآخر ساهمت في تأكيد التفوق الغربي وتمييزه عن باقي الحضارات، ومن أجله يحتاج الغرب لنقيض.

غربوي

هنالك فرق بين "غربي" و"غربوي"، فـ"الغربوي" يشير إلى التأويل الإيديولوجي للغرب عن ذاته في مرحلة معينة من تاريخه لتحقيق غرض معين، حيث يتم تصوير الغرب كمتفوق على الآخرين. هذا التأويل ليس مجرد وصف جغرافي أو تاريخي، بل هو وصف مشوّه يهدف إلى إبراز الغرب كعظيم، مع تجريد هذه الصفات عن الآخرين.

تحول أوروبا في عصر النهضة والتنوير

في عصر النهضة، انتقل الغرب من محورية الدين إلى محورية العالم والإنسان، وهذا يمثل الجانب العقلاني في التجربة الغربية. لكن بالقرن العشرين أصبح هناك ردة على العقلانية، وصار يُنظر للعقل كقمة الجليد والباقي غريزة، والغريزة صارت تفسّر الحروب والعلاقات الدولية. هذه المفاهيم ظهرت في علم النفس، الأدب، ماركس، نيتشه، والتأويل.

وضع الغرب حضارته بمسار تصاعدي معزول، تنمو وتتطور إلى الأفضل، واستفادت أقصى الحضارات الشرقية والإسلامية منها دون الاعتراف بأن هناك حضارات تفكر مثلها، ومع الاستعمار والمعرفة والقوة، فرض صورة عن الآخر، حتى صار الإنسان يرى نفسه متخلفًا. والتاريخ صراع أمم، ولا توجد أمة تبقى أو ترجع لماضيها لتنجو.

رينان

من الملامح البارزة لتشكيل فكرة الغرب أو ما يسمى بالعقيدة الغربوية، ما يسمى بالإعلان للكيان من رينان شخص ما كان متعصبا كثيرا في تصوره لفكرة الغرب وعلاقة الغرب بالآخر فواحد من أهم هذه العناصر التي أتينا على ذكرها أن الحضارة الغربية هي وحدها فقط القادرة على التقدم.

ادعى رينان أن الإسلام لا يمكن أن يصل لحضارة لأنه مرتبط بحياة البدو، والبدو لا ينتجون إلا الفوضى أو الطغيان، وهذا لا يُنتج حضارة. لكن هذا تعميم، لأن البداوة ليست حكرًا على العرب، فهي نمط حياة قائم على الرعي والتنقل، وظهرت في كل مكان، حتى أوروبا. قبائل جرمانية بدوية أسقطت روما وكانت تعيش بالانتقال. فالتعميم بأن العرب بدو فقط خاطئ، والغزو عند العرب كان ناتجًا عن غياب السلطة المركزية، وهذا ينطبق على أي مكان لا توجد فيه سلطة، وهي سمة عامة في التاريخ.

الاستشراق

لم تُقدَّم صورة الغرب بناءً على واقعه الحقيقي، بل وفق غايات أراد من خلالها تصوير نفسه على أنه مركز العقلانية والحضارة والتقدّم المتواصل، مقابل تصوير الآخر على أنه غير قادر على التقدّم. ولتحقيق هذه الصورة، كان لا بد من تشكيل صورة مقابلة عن الآخر. ومن أبرز الدراسات التي تناولت هذا الموضوع كانت دراسات الاستشراق، والتي ارتبطت تاريخيًا ببدايات احتكاك الغرب بالمشرق العربي الإسلامي، كونه الأقرب جغرافيًا إليه في تلك الفترات.

واتصلوا بهذه الحضارة عبر الأندلس والحملات الفرنجية. عندما رأوا أن وجود الحضارة العربية الإسلامية مختلفة عما لديهم، بدأوا يتجهون نحو دراسة المشرق. وعندما ذكر الاستشراق، نحن نشير إلى كل الدراسات التي جعلت الشرق موضوعا للدراسة، من عادات وتقاليد وأديان...

STUDENTS-HUB.com

الفلسفة المثالية الذاتية

بما يتعلق عن ديكارت، وفي فلسفة المعرفة مقولنه المشهورة "أنا أفكر، أنا موجود" كانت تأسيساً لما يسمى الفلسفة المثالية الذاتية، ذاتية لأنها تبدأ بأنا الذات، ومثالية لأنها تجعل الفكر يثبت الوجود. وفي الفلسفة توجد نزعتين، المثالية تتمثل نقطة البدء فيها بالفكر، والواقعية ترمز للواقع.

لاحقاً، أصبح تأويل الغرب لعبارة "أنا أفكر، أنا موجود" أن الذات المفكرة هي الغرب، وموضوع تفكيرها هو الشرق، وهذا جوهر الاستشراق. الغرب يحصر الفكر في ذاته ويجعل الآخر موضوعًا للتفكير، كأنه غير قادر على التفكير بنفسه. فالغرب هو العقل، والآخر هو الغريزة؛ الغرب مفكر، منتج، والآخر مستهلك. حتى في الرأسمالية، كما أشار ماركس، الغرب يسعى لصنع عالم على صورته، لأن الاقتصاد القديم يعيق التراكم الرأسمالي. لذا، عندما يستعمر بلدًا، يبني بنية تحتية وموانئ ومصانع، لا لمصلحة البلد، بل لدعم رأس المال الغربي. هو بحاجة لمستهلكين لفائض إنتاجه، ولموارد خام، ولأيادٍ عاملة رخيصة. يدفع القليل للعامل الهندي، مقابل ما يكسبه العامل الأمريكي في ساعات، ويُعِدّ العمال ليخدموا اقتصاده. فيبقى الآخر، في أحسن حالاته، ذات مستهلكة، لا منتجة، ينفي أن يكون قادراً مثله. المسألة تتجاوز الطرح النظري، فهي تهدف لنزع تعريف الذات. المستعمر يمنعك من أن تكون فاعلاً أو مفكراً، ويُصوّر نفسه عقلانياً ويصوّرك شهوانياً، ثم يفرض أدواته المعرفية عليك، حتى تُعيد أنت إنتاج صورة عن نفسك تشبه ما رسمه عنك. والغرب يعتبر أن خط وجوده هو مسار تاريخي، دائماً في حالة تقدم وصعود.

التأثر بالآخر يتمثل في محطتين رئيسيتين: الحملات الفرنجية على المشرق والاحتكاك بالأندلس. ساعد هذا الاحتكاك الغرب في تأسيس أصوله، حيث كان التراث اليوناني موجودًا باللغة اللاتينية في الأديرة، ولم يكن متاحًا للغرب. اللغة العربية كانت لغة المعرفة في العصر الوسيط، واحتفظت بالكثير من الأعمال اليونانية المترجمة. مثال على ذلك خطأ المترجمين العرب الذين ترجموا "التاسوعات" وأخطأوا في نسبه لأفلاطون، مما كرره الغرب لاحقًا. كذلك، كان الفيلسوف أريستو طوليس معروفًا في الجامعات الأوروبية من خلال ترجمات ابن رشد. إضافة إلى ذلك، كانت خريطة الإدريسي التي تضم قارة الأمريكيتين، ألهمت المستكشفين مثل كولومبوس. هذا يوضح التأثير المتبادل بين الحضارات، إذ لا يمكن رؤية الأشياء إلا بتقاطعاتها.

الأسطورة

الحضارات تتثاقف وتتلاقح وتنتج شيئًا مشتركًا. وحتى ما يُعتبر جزءًا من إيمان بعض الناس قد لا يكون جزءًا من إيمانهم. في الحضارة العربية الإسلامية تم الاستناد إلى قصص وتفسيرات كانت موجودة في الحضارات السابقة. جاء الإسلام وبنى حضارته بهوية مستقلة، لكن التأثيرات من الحضارات السابقة لا يمكن تجاهلها. أوروبا، في صورتها عن نفسها، نفت التأثر بأي حضارة، معتبرة نفسها خطًا صاعدًا من اليونان للتنوير. ورغم أن الفلسفة اليونانية قدمت الكثير من الرؤى العقلانية، إلا أنها استندت إلى أساطير، مثل فكرة الفلسفة الأولى، أي نشوء الخلق من المادة الأولى التي تتكون من الماء والتراب والنار والهواء. هذا كان يغلف العقل اليوناني. إذا كان هناك عقل، فهو يتخالط مع الأسطورة. العقلانية الغربية ليست خالصة من الأسطورة. والعلم والعقل تطورا بعد مرحلة الأسطورة، وكل مجتمع تأثر بالمرحلة الأسطورية. لذلك، الغرب رغم ادعائه العلمانية، استدعى الرموز الأسطورية والدينية لتأسيس ذاته. بشكلٍ عام، عندما يعجز العقل البشري عن إيجاد إجابة بمنطق العلم، يبحث عن منطق آخر. النرجسية الإنسانية لا تمنع من قبول ذلك. العلم يجب أن يقدم إجابة، وإن لم يستطع فهذا يعود لقصور لدينا، وليس لوجود قوة خارجية تدخل في الأشياء. ما لا يفهمه الشخص، لا يجب اختراع صورة له خارج قوانينه. الأشياء لها قوانينها، وإرادة الله تنصرف عن الأشياء ضمن القوانين.

STUDENTS-HUB.com

المحور الثّالث: الرّأسماليّة والاستعمار

1. الشّرايين المفتوحة لأمريكا اللاتينيّة

يقدم كتاب الشرايين المفتوحة لأمريكا اللاتينية تحليلًا نقديًا لتجربة الاستعمار الأوروبي في أمريكا اللاتينية حتى القرن العشرين وعلاقته بالرأسمالية. ويوضح كيف استمرت القوى الاستعمارية في الهيمنة حتى بعد خروجها الرسمي، عبر **آليات اقتصادية وسياسية تُبقي الدول المستعمَرة في حالة تبعية**.

تناول الكتاب ثلاث نقاطٍ رئيسية:

1. الاستغلال الممنهج للموارد الطبيعية والبشرية (نزف الموارد)

بدأ الاستعمار الأوروبي للأمريكيتين بالكشوفات الجغرافية التي قادتها إسبانيا والبرتغال، ثم توسع ليشمل بريطانيا وفرنسا، وما بعد بريطانيا توسعت سياسات الهيمنة بالإمبريالية الاقتصادية والسياسية، إذ أصبحت أمريكا اللاتينية تابعة للولايات المتحدة. وكان الهدف الأساسي هو الاستغلال الممنهج للموارد الطبيعية والبشرية. وتشير الدراسات إلى أن عشرات آلاف الأطنان من الذهب والفضة تم نقلها خلال القرنين الأولين من الاحتلال الأوروبي. ثم استغلوا موارد أخرى كالمطاط والسكر والبُن، مرورًا بالنفط.

التبرير الأيديولوجي لاستعمار أمريكا اللاتينية

واحدة من أبرز الطرق لتبرير الاستعمار واستغلال الثروات ظهرت في مذكرات كولومبوس الذي صور العالم الجديد على أنه "الفردوس المفقود" الذي يحوي الكثير من الخيرات الطبيعية، كما لجأ إلى شيطنة السكان الأصليين بوصفهم بالهمجية والبربرية، وعدم التحضر، وبكونهم آكلي لحوم بشر، مما شرعن سياسات الإبادة وإخضاعهم وفرض القيم الأوروبية والدين في إطار تبرير فكرة الاستعمار والنهب. فقاموا بإبادتهم، والاستيلاء على أراضيهم واعتبارها مناطق أمنية معزولة، وحرق قراهم، ومن تبقى منهم عوملوا كمخلوقات غريبة مساوية للحيوانات.

الاستغلال الاقتصادي

إضافة إلى نهب الموارد الطبيعية، كان الاستعمار بحاجةٍ إلى أيدي عاملة رخيصة، وعليه قام بإخضاع الناس على تعلم بعض المهن والحرف التي تصب في مصلحة المستعمرين. كما ونشطت تجارة ونقل مئات الآلاف من الأفارقة عبيدًا إلى الأمريكيتين للعمل القسري في المزارع والمناجم. هؤلاء الأفارقة كانوا يُصطادون كالحيوانات، غالبًا من قبل الأفارقة أنفسهم الذين عملوا لصالح الاستعمار لاستعباد الآخرين مقابل الحصول على امتيازات، حتى يصبحوا وكلاء رسميين. وتم استغلال الدين كأداة استعمارية، حيث تم تحويل السكان الأصليين إلى المسيحية وتعليمهم اللغات الأوروبية، ليس بهدف إدماجهم كمواطنين، بل لمحو ذاكرتهم الجماعية وإضعاف هويتهم المستقلة. وبذلك عمل المستعمر على التفرقة بين الناس. وتستمر الهيمنة حتى بعد خروج المستعمر والتقسيم الطائفي والطبقي، إذ لطالما كان هناك استغلال بين الطبقات كما تبيّن في مقدّمة البيان الشّيوعي، وهنا يحدث عبر النخب المحلية المتواطئة والوسطاء، كذلك الأمر يظهر في تحليلات **روزا لوكسمبورغ** في التجارب الثلاث ومثال فلسطين. وبشكلٍ عام، لطالما كان الاستغلال موجودًا، لكن ما يتغيّر هو موضوع الاستغلال نفسه. سواء على الصعيد المحلي داخل البلدان أو على الصعيد الدولي بالاستعمار المباشر أو استخدام أدوات كالقانون الدولي والإعلام والتكنولوجيا والإمبريالية وسياسات صندوق النّقد الدولي.

STUDENTS-HUB.com

2. التنمية والتخلف – تقدم أوروبا وتخلف غير الأوروبيين

لطالما تم تصوير الدول المستعمِر على أنها متأخرة، وأن الاستعمار عمل على تحقيق تمدينها وتنميتها. لكن الواقع أظهر خلاف ذلك، إذ عمد المستعمر بأنماط الاقتصاد والتبادل غير المتكافئ التي فرضها إلى نهب المواد الخام بأسعار رخيصة جدًا وتصنيعها ثم تصديرها بأسعارٍ مرتفعة، غير ذلك فإن المستعمر يبقى مسيطرًا على هذه المنتجات حتى بعد بيعها، ويمكنه إيقافها أو إبطالها، كالتّحكم بالأسلحة. إضافةً إلى إبقاء الدول المستعمَرة في حالة تبعية حتى بعد خروج المستعمر، عبر الشركات الأجنبية والأنظمة الفاسدة، والارتباط المستمر بالاقتصاد العالمي والدول لمصنعة. وقام بالتغيير في بنيتها وتأخيرها بشكلٍ متعمد، لضرورة تراكم الثروات على حساب الغير. بناءً على ذلك، يتضح أن المجتمعات هذه ليست متأخرة لأنها هي كذلك، إنما بسبب تأثير الدول المستعمرة وخطواتها نحو إبقاء حالة التخلف هذه.

3. تواطؤ النخب المحلية

لم يكن المستعمر قادرًا على إحكام سيطرته لولا تواطؤ النخب المحلية الفاسدة وخيانة مجتمعاتها للتعامل كوسيط لتحقيق مصلحة ذاتية، إذ يدعم الاستعمار جزءًا من المجتمعات المحلية لتكون وكيلاً لمصالحها. وقامت هذه النخب بـ:

أ) تسهيل نهب الموارد على المستعمر مقابل امتيازات، وتكديس قلةٍ للثروات على حساب الفقر الجماعي، ومنها تخرج الطبقات المسيطرة على المجتمعات بعد جلاء المستعمر.

ب) قمع حركات التحرر لضمان استمرار مصالحها – المربوطة بمصالح المستعمر –.

جـ) تبرير الطبقات المتواطئة للاستعمار باعتبار أنه سبب التمدن والترقّي والحداثة في المجتمع وحتى استخدام اللغة لتغيير المفاهيم لصالحهم.

وتبقى البنى الاقتصادية مشوهة حتى بعد خروج المستعمر، فتستمر الأنظمة الاستبدادية التي لا تحظى بشرعية شعبية، مما يعزز التبعية للنظام الدولي الذي يخدم مصالح القوى الكبرى، وذلك من خلال **صندوق النقد الدولي** الذي يفرض سياسات تقيد استقلال الدول النامية وتزيد من اعتمادياتهم، و"إصلاحات" ظاهرها الحد من الفساد لكنه لضبط المجتمعات وتكريس التبعية، فتخلق نمطًا من الفساد المؤسسي الذي يُشرعن الهيمنة تحت غطاء الحداثة والتنمية، وربط الناس بالنظام الاقتصادي العالمي عبر **الديون والقروض**، كذلك **العملات**، مما جعلهم غير قادرين على الاكتفاء والاعتماد الذاتي أو الاستقلال، وعليه، تقييد اتخاذ قرارات سياسية مستقلة.

STUDENTS-HUB.com

2. لاهوت التّحرير

ساند الاتحاد السوفييتي نشر الفكر الماركسي عالميًا بعد الثّورة البلشفية عام 1917، ما مهّد، خاصّةً في الستينات، لظهور أحزاب وحركات التّحرر لمقاومة للاستعمار من جهة، وللأنظمة الاستبدادية والظّلم الاجتماعي في بلدان العالم الثالث من جهة أخرى. وفي سياق الحرب الباردة، أصبحت أمريكا اللاتينية حقل مواجهة، حيث دعم الاتحاد السوفييتي (الكتلة الشّرقيّة) الحركات المناهضة للرأسمالية والاستغلال والهيمنة الأمريكية فيها وبمختلف أنحاء العالم.

صعود فكرة لاهوت التّحرير

أبرز التّيارات التي ظهرت مع صعود حركات التّحرر والنّضال ضدّ الاستغلال ما يُسمّى **بلاهوت التّحرير**، الذي ظهر في أمريكا اللاتينية وارتبط بدخول الماركسية المناهضة للاستغلال على حيز الكنيسة الكاثوليكية، فنتج تحالفًا ما بين الاثنين. اللاهوت في المسيحية هو علم العقيدة والفهم الديني، وبارتباط المفهوم بالتحرير، وُظّف الدين في خدمة القضايا الاجتماعية لتمثيل مصالح المقهورين عوضًا عن الطبقة الحاكمة. فقد سعى الماركسيون للدّخول على خط الوعي الشعبي ودمج خطابهم النضالي مع البُعد الروحي للمجتمع الكاثوليكي الكنسيّ بلغةٍ وجدانيّة، خاصّةً بشعور النّاس بالظلم والاضطهاد وانتشار التّفاوت الطبقي والتمييز العنصري. فكان التّحالف ناتجٌ عبر الجمع بين الأحداث النّضاليّة والإيمان الشّعبي وارتباط النّاس بالكنائس، وعليه رُبط الدّين بالسّياسة، يتحوّل فيه الدّين لوسيلة نضالٍ ضد الاستغلال، ويُعاد النّظر في النّصوص العقائدية لما يخدم أغراض التحرر والعدالة الاجتماعيّة.

بناءً على هذا الربط، يتأسّس فكرٌ يجمع بين **اللاهوت النّظري واللاهوت العملي**، أي إعادة النّظر في المؤسسة الدينية والكنيسة من أجل تسخيرهنّ لخدمة الأهداف النضالية، وضمان ممارسة ثورية ماركسية بالنضال والكفاح والتغيير وحشد الناس نحو ذلك.

الواقع ونشأة اللاهوت

كان الواقع الذي مهّد لنشأة اللاهوت نتيجةً لنظام مركّب من التبعية والتهميش المباشر بالتدخل العسكري أو غير المباشر. فقد خلّف الاستعمار أنظمة مشوّهة، ونخبًا محلية ناهبة متحالفة مع القوى الإمبريالية، سواء كان ذلك في أمريكا اللاتينية أو جدول العالم الثالث، فالتهميش أدى إلى تشكيل تحالفاتٍ اقتصاديّة واحتكار وتركّز الثروات بيد قلة مقابل فقر كبير للغالبية، وأصبح الفكر جماعيًّا. وهيمنت الملكيات الضخمة، وتحوّل الاقتصاد إلى منظومة رأسمالية تُصدّر الخيرات بثمن بخس وتُغرق الناس بالعوز، وتجبرهم على العمل في الأرض والمناجم، وقمعت الأنظمة الديكتاتورية بدورها الحريات ودعمت الطبقات المسيطرة لصالح الهيمنة الغربية. هذه العوامل أدت إلى تعميق حالة المظلوميّة، وخلق وعيٍ بضرورة مواجهة الحالة القائمة في نفس الوقت بفرضٍ واقعٍ للنضال على الأرض.

تأويل شعبي للمسيح

كما ذُكر سابقًا، فمع تلاقي الماركسية مع الإيمان الشعبي الكاثوليكي، كان لا بد من لغة وجدانية، فظهر تأويلٌ شعبي للمسيح الذي يُرى لا كمخلّص أخروي فقط، بل كمنقذ دنيوي من الاضطهاد والجهل والفقر والمرض والخوف. فقد أعادت المجتمعات رسم صورة المسيح بناءً على واقعها، وأُنتج فهم جديد للدين يواكب الحاجة للتحرر. فلم يعد الخطاب يكتفي بالخلاص من الخطيئة، بل دعا للخلاص من الظلم الطبقي والعنصري.

STUDENTS-HUB.com